حصة تعبير في تخوم الخيال
انزياحات طالت المعلم والطالب والكلمات

وائل كشك

إن المدرسين الذين نتذكرهم أكثر من غيرهم هم أولئك الذين كانوا يتشككون في تفسير ورد في كتاب، أو دهشوا أمام فكرة، أو اكتشفوا المعنى أمام لوحة. . . أولئك الذين تجنبوا زرع أية معتقدات نهائياً في أذهاننا، بل أوحوا لنا بالكثير من الأفكار، هؤلاء كانوا يقولون لست أدري أو ليتني كنت أدري. . . منهم من حرك فينا أعماقنا واستفز فينا حواسنا وأدهشنا. . . هؤلاء كان في مقدورهم أن يصلوا في الخيال إلى حالاته القصوى. . . نعم، هؤلاء أكسبوا طلابهم المعرفة بالخيال!

كان السحر يكمن في خيال المعلم "قدري" الذي هجر الأدب إلى الرياضيات لمدة عشرين عاماً، ثم رجع إلى الأدب (والرجوع هنا عودة أو يقظة!). . . جاء إلى مدرستنا كمعلم بديل لمدرس اللغة العربية الذي اعتقل آنذاك، وكان ذلك في أواخر السنة النهائية لنا في المدرسة. عندما سأله زميلي مجدي عن مكان سكنه أجاب أنه يسكن في محيط الأمل، بجانب سهول شاسعة من الحلم. . . وما أن انتهت دقائق التعارف حتى بدأ يسترجع الإحباطات والإخفاقات التي مرّ بها عندما كان طالباً، وهو يحاول تحسين قدرته في الكتابة، لقد نقل إلينا صراعاته مع المصادر المشتقة، واسم المفعول، وخلطه المبكر بين الاستعارة التصريحية والمكْنية من جهة، والاستعارة التمثيلية من جهة أخرى، وولعه بالكناية والمجاز المرسل. . . صوّر لنا مناكفاته مع أستاذ "الإملاء" -كما سماه- هذا الأستاذ الذي كان يؤنبه كلما حاول إدخال الأعصاب إلى الكلمات بحجة أنها تصبح مليئة بالخدوش والجراح والتمزقات والتوثبات!

كان مناخ الصف مليئاً بالإثارة والدهشة، ولم يكن بمقدور أيٍّ منا أن يتوقع بوجه الدقة ما سيحدث في الخطوة القادمة. . . دفش الكرسي الذي أمامه وجلس على الطاولة وتحدث بنبرة عالية:

إن الكتابة كالأرض، يجب أن تكون حرة طليقة، ترفض الأحكام المسبقة والقواعد المحكمة. . . يجب أن تكون حرة في دورانها حول القلم، وبوجود حرية محتملة تولد الأفكار وتتصاعد، لذلك اكتبوا بلا تردد أو خوف من أن ما تكتبونه سيعجبني أو لا يعجبني، اكتبوا شيئاً مفصلاً من صفحات عدة عن أحد الموضوعات الصعبة التي تتوقعون أن تكتبوا عنها في مقررات أخرى. . . أريد أن أرى نصوصاً فيها أحلام دون شواش، وخيال دون أوهام. . . وظّفوا المجاز، ففي المجاز مغامرة قد تبلغ أقصاها حين تأتي مع غيوم الكلمات، لا تخشوا غيوم الكلمات، فكلما ازدادت غيوم اللغة غُموضاً تُمطر أكثر معنى ودلالات، فالغيوم سرمدية الدلالات. . . أخيراً لا تأبهوا بالإملاء ولا بالقواعد، فقط أريد توازناً وتناسباً رياضياً بين وزن حروف الكتابة وأوزان من تكتب فيهم. . . .

أريد أن أعرف فقط كيف تتوازن الحروف أو تختل، ووظيفتي تشبه ما كان يفعله "أنجلو" في مواجهته لكتلة الرخام، حيث كان يزيل الأجزاء الدخيلة ليكتشف التمثال الكامن تحتها.

يتلفت الطلبة فيما بينهم، وخلدون يسأل: موضوعي الصعب هو التاريخ، والتاريخ حقائق، والأدب مجاز، فكيف لي أن أكتب أدباً في التاريخ؟ ويسرى تتساءل عن إمكانية إدخال المصطلحات العلمية في نص أدبي. . . أسئلة كثيرة يصغي لها المعلم قدري باهتمام، ويأخذ دوره في الكلام:

اكتب بخيالك، من يتخيل يكتب، ومن لا يتخيل يستكين، والاستكانة بهذا المعنى سكوت ونقيض للحيوية، والكتابة هي حالة من الحيوية، والحيوية مرتبطة بالحياة، والحياة بالحلم، والحلم خيال يسعى إلى هدف، وعلى جناحي الحلم والخيال ارتفع التاريخ. . . إن الحلم ليس قضية ترف بالنسبة إلى الشعوب، إنه المحرك الأكبر لطاقة الشعوب، فهل نستطيع أن نفهم دولة إسرائيل دون أن نعي الحلم الصهيوني؟ كيف لنا أن نفهم سعي البشرية في إنجاز المجتمع المثالي دون حلم أفلاطون والفارابي وخيالهما للمجتمع المثالي والدولة الفاضلة؟ حتى النظريات الكبرى في العلم سبقها الحلم والخيال، وقد مرت صور الكون بالعديد من الأشكال المتخيلة قبل أن تقدم العقلانية المعاصرة صورة الكون الحالية، التي لا تخلو في بعض مكوناتها من خيال.

"على كل حال، تذكروا أن هناك مئة طريقة لحسن الكتابة، ولكن هناك طريقة وحيدة للكتابة بطريقة سيئة، وهي أن تكتب مثل كل الناس. . . لذلك حاولوا أن تكتبوا جُملاً ممتلئة بإرادة تعبير جديدة، جُملاً ترسم صوراً تستمد قوتها من داخل تكثيفها".

يمارس المعلم "قدري" عمله كنحات من أجل الكشف عن الجمال الكامن من تحت السطح أو وراء النص، بعد أسبوعين يصبح بعض ما كتبه خلدون وهو الطالب المعروف عنه كرهه لمادة التاريخ هكذا:

"عندما ودعت أهلها أعلنت سهير بنشوة عارمة أنها ذاهبة إلى بيروت. . . تجلس سهير في إحدى ليالي القتال في أحد مواقع الثورة الفلسطينية في كورنيش المزرعة، تستغل وقف إطلاق النار وتسند ظهرها إلى جدار وذراعيها إلى بندقية الكلاشنيكوف التي تسلمتها قبل يومين. . . تتذكر أمها وأختها الصغيرة، تُحاول أن تكتب شيئاً لأهلها، تُخرج ورقةً وتُسندها إلى كعب بندقيتها. . . لم يطاوعها مداد قلمها في البداية وهي تتذكر وجه جميلة بوحريد ناحلاً بطولياً، فيما كلمات نزار قباني تلاحقها:

الاسم جميلة بوحريد. . . رقم الزنزانة ستون، في السجن الحربي في وهران. . . ترسم هالة حول صورة العذراء، وفي سجنها تقرأ في سورة مريم والفتح وتقاوم التعذيب.

تُحاول سهير مرةً ثانية أن تكتب شيئاً إلى أمها، ولكن صورة عُمر المختار تمر أمامها، وكيف لا وهي التي شاهدت هذا الفيلم ثلاث مرات قبل يوم من رحيلها:

"عندما اقترب الحبل منه كان أبهى، وعندما لفوا الحبل حول عُنقه وقف أمام موته بشرف وكرامة وعزة نفس. . . " .

كانت سهير تحاول أن تكتب شيئاً ظانّةً أنها لن تعيش حتى الصباح لتقرأ ما كتبت. . . حاولت أن تكتب قصيدة في إعدام عمر المختار وهي لا تعلم أن هذا المشهد سيختصر كل تاريخ الأمة ورجالاتها العظام:

يا عمر المختار ما يهمك	قامتك قد الجبال
لو أعدموك بالرصاص	لكان اعتذر بالحال
لما علقولك مشنقة	استصرخت الحبال
المشنقة عندك فخر	أرجوحة الأبطال
من فلسطين ننعاك	وبتبكي عيون رجال
بننعاك وبنبكي عليك	بنبكي بدمع أطفال

قُبيل الفجر تستسلم سهير للنوم والأحلام. . . وعند الصباح تكتب حُلمها:

"تراءى لي أني منقسمة الخلايا موزعة ومبعثرة في الاتجاهات والميول، خلايا منشقة ومتناثرة ومنخرطة في أزمنة غابرة، خلايا تقاتل مع خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وأخرى تساند صوت بابلو نيرودا ملهماً ملايين الثوار. . . خلايا تقاتل مرة مع الحسين في كربلاء، ومرة مع صلاح الدين في حطين، وأخرى تمسك بريشة الفنان غويا لترتعد الألوان، وتستمر الثورة في أسبانيا. . . خلايا تقاتل مع جيفارا في غابات بوليفيا، وأخرى تبكي أمام مقتل المتنبي والحلاّج، خلايا تساند صوت ياسر عرفات مستغيثاً لوقف مجازر مخيم الوحدات. . . وأخرى تبكي الشهداء في الكرنتينا وتل الزعتر" .

كان من حسن الحظ أن سهير قرأت ما كتبت، ومن حسن الحظ أيضاً أنها كانت شاعرة جيدة.

أما يسرى وهي المولعة في مواضيع العلوم والرياضيات، فكان هذا جزء مما كتبت:

"ها أنا أتحول إلى ذلك الجسيم الضوئي الذي طالما تمنيت أن أكونه. . . الفوتون. . . أرى هذا الفضاء الكوني المخيف الذي يحيط بي، وأجد نفسي مقيدة بركن من هذا الامتداد الهائل دون أن أعرف لماذا أنا في هذا الموضع دون سواه. . . أتواجد في بداية الكون ونهايته في آن، ولا أشعر بمضي الزمن أثناء التجوال بسرعتي الهائلة، أقفز فوق الحواجز الطاقية العليا وربما فوق الأزمنة، وأرتحل نحو أكوان موازية نحو الأزلية التي سبقتني، أو نحو الأبدية التي ستأتي بعدي، أو نحو تُخوم اللانهاية التي ستحكي قصتي.

كنتُ أسير في "بارابولا" من الدرجة الرابعة تسمح لي بالاقتراب من خطوط تحترف البكاء، وأثناء سيري التقيت بهذا الإلكترون المتعب، كان يقفز من مدار إلى مدار، وكان يصدر طاقة ضائعة فأين ذهبت هذه الطاقة سألته؟ لم أفهم كيف يحافظ الكون على انتظامه على الرغم من خسارته للطاقة!

أثناء المسير فاجأني الثقب الأسود، فحاولت الإفلات من قبضته، فحاصرني حيّز من الفضاء يعرف بـ "أفق الحدث"، وقيل لي أن من يجتاز هذا الأفق يختفي بسرعة من الوجود، ولكني لم أستطع اجتيازه، ودلفته، فرأيت الكون وقد أزفت نهايته بشكل آني تقريباً، وقد توحدت كل التواريخ السابقة في سراديب الأفق.

على كل حال، دخولي إلى الثقب الأسود يشبه من حاول دخول المرآة ليرى نفسه في بلاد العجائب، كان كلما يحاول تقطيع قالب الحلوى، يفاجأ بعودة القالب إلى التماسك من جديد! لقد قام بقتل جده وبقي هو. . . سمعت أن جده مات في كونه وظهر في اللحظة نفسها في كون آخر موازٍ!

اندفعت إلى ما وراء الثقب الأسود، فوجدت أكواناً وأكواناً مضادة (ينعكس الزمن في الكون المضاد) وتبين لي أن بوزيترون موجب الشحنة-موجب الطاقة، والمرتحل إلى المستقبل هو عينه الإلكترون سالب الشحنة-سالب الطاقة والمندفع إلى الماضي.

عندما خرجت من السكون الفيزيائي لنيوتن وباسكال وكانط، ودخلت إلى هذا الكون الديناميكي- كون الانبساط والإفصاح لكمون منطو- اكتشفت أن هذا الكون يجيب عن أسئلة الحقيقة والفهم والشعور بصورة أكثر علمية، حيث أن الحياة ليست ناتجة من مجرد اتحاد أولياتها في ظروف معينة، بل هي كمون منطو في الحركة الكلية القابلة لكل إبداع جديد. . . ستستمر هذه الأكوان بالتوالد من أجل استيعاب المزيد من الحقائق المخلّقة، وأن ارتطام العالم بالوعي هو المولد لهذه الأكوان.

لم يعلمنا أستاذ قدري فنون الكتابة فحسب، بل علمنا أن الفكر يشبه عربتين يجرهما جوادان هما: الشعور والخيال، ولكن بقيادة حوذي ماهر هو العقل، ومن خلال هذا التشبيه فتح بوابة التشبيهات والكنايات والاستعارات، فكانت حصص اللغة العربية مدهشة في بديعها وخيالية في بيانها... تراءى لنا المعلم قدري وكأنه يُقيم له بيتاً في اللغة، ... حتى عندما سألته زميلتي لبنى عن سبب تأخر المطر، أجابها: لأن الماء ما زال نائماً في سرير السحاب... وعندما سأل ناصر عن سبب ارتفاع الجبل الذي يظهر من نافذة صفنا في محاولة منه لاختبار معلومات الأستاذ قدري العلمية، أجاب قدري: لأن أجدادنا زرعوه بالشعر والزعتر!

لم نسمع منه عبارات مثل: فلان كالأسد في الشجاعة كمثال في موضوع التشبيه أو عبارة نظرت إلى القمر ليلاً/ ضحك القمر كمثال للتمييز بين الحقيقة والمجاز... أمثلة الكتاب في الكناية سقطت منه (أحمد كثير الرماد، سعاد بعيدة مهوى القرط، ...) واستعار من الخيال عبارات في أسئلة أو ألغاز في أجوبة... كان يقدمها لنا كأسئلة ينتظر إجاباتنا عنها في اليوم التالي، فمثلاً كان يسأل:

ما هو الليل وماذا يفعل بالألوان؟ ما هو الملح؟ ما هو الفجر؟ ما هو الموج؟ متى تشتعل الصفحات؟ لماذا صوت الرعد في السماء؟ ماذا يفعل صدف البحر؟ عرّف النهاية؟

كانت إجاباتنا من نوع: الليل حالة من حالات اليوم تقابل النهار، تطول أو تقصر تبعاً للفصل... الملح تفاعل الصوديوم مع الكلور... الفجر هو الفترة التي تسبق شروق الشمس بنصف ساعة... الموج تيار مائي تسببه حالات المد والجزر... تشتعل الصفحات عندما ننسى دفاترنا بجانب الموقدة في الشتاء... الخ.

أمّا إجاباته فكانت تتراوح بين الاستعارة الحالمة والعبارة الهاجسة... كانت فيها تشبيهات وكنايات... كانت سرمدية الدلالات، فالليل بالنسبة له هو حجاب تضعه الشمس على وجهها، أو هو مغارة اللون الأسود، والليل يغزو الألوان، ويُغلق فوهات تجلياتها... الملح هو تعبير المادة عن مدى صبرها على البحر... الفجر هو روح الليل... الموج هو رسائل تتطاير في الذاكرة... تشتعل الصفحات عندما تتقد الثورة تحت رماد الكلمات... وصوت الرعد ليُكمل السحاب قراءته... صدف البحر يبحث عن أسرار الماء، أما النهاية فهي إخفاق البداية في الحياد... نعم، كان بارعاً في إزاحة المفردات إلى غير دلالاتها الحسيّة المألوفة، وكان يبتدع من خياله ترابطات تكسبها إيقاعاً جمالياً... حتى عندما يصمت كان يحافظ على هذا الخيط الموصول بتهجئات الخيال.

بعد مرور هذه السنين تعلمت من هذا المعلم منهجاً... هو منهج الخيال... فالخيال منهج لاستثارة العقل كي يمزج بين الفعل والخلق والإبداع، وهو بذلك يساهم في تفتيح الذهن وتوسيع المدارك، وبفضله أيضاً تيقنت بإمكانية استدخال المصطلحات العلمية إلى النص الأدبي دون أن يشوش ذلك على فراغات النص، ودون أن تحول المصطلحات العلمية الرموز الأدبية إلى فضاء أسطوري شبيه بالثقوب السوداء التي -على رأي من علمونا- تبتلع إشارات النص وتراكيبه ودلالاته.

لا أعتقد أن هناك تدريساً فعالاً دون خيال أو دون وجود من يساعد طلابه على إطلاق الخيال لأنه بالتخيل:

- يتمكن المدرسون من معالجة موضوعات مقرراتهم بأساليب شيقة ومبتكرة، وربما عن طريق ألعاب تخيلية، فكم يستهوي الطلبة ألعاباً على شاكلة: هيا بنا نتظاهر بـ، أو لنفترض أن.....
- يكتسب التدريس عنصر المفاجأة والإثارة، فالتخيل يوحي للطلبة بالغريب والملغز.
- في التخيل دهشة، والدهشة بداية المعرفة، فالإنسان الذي يندهش يحاول أن يفهم ما يراه وما يسمعه... ومن لا يندهش يكون غائباً عن الدنيا، أو الدنيا تكون قد غابت عنه.
- بالخيال نستحث الطلاب لارتياد عالم لانهائي من الأفكار والرؤى، وهذا يعني تجاوز الكتاب المقرر، وربما بعض الخطط الموضوعة سلفاً.

وأخيراً هذا نداء ورجاء... من قدري إلى جميع المعلمين:

تحية وبعد،
يا من قامت على أكتافكم مسؤوليات الوطن وبناء الجيل.... وعلقت على أكتافكم مسؤولية بناء الوطن، نعم ظروفكم صعبة... في الصف... في المدرسة... في الشارع... ومع ذلك أتمنى عليكم زحزحة في أدواركم وإزاحة في نظرتكم إلى تخصصاتكم، وعلى هذا الأساس أناشدكم:

- أن يكون تدريسكم في حكايات؛ لأن الحكايات هي شبابيك الروح والخيال.
- أن توفروا الفرصة لكي يلج طلابكم عالم الأشياء الممكنة والرحبة كمغامرين.
- أن تجعلوا أفكار طلابكم تنبض بالحياة عن طريق شحنها بفيض من الصور والأخيلة.
- دعو طلابكم يكتبون في السهل... في الجبل... أمام مشهد الغروب، وهناك سيُلون الغسق الكلمات.
- دعوا طلابكم يكتبون أمام البحر.. هناك ستكون كلماتهم زرقاء، وستنقلها الأمواج العالية إلى شواطئها... ستكون معانيها بعيدة الدلالات.
- دعوا طلابكم يستعيرون من الطبيعة حروفاً، ومن ألوان الشجر والبحر نصوصا... عندها ستكون تعبيراتهم سلاسل أنغام وألحان، ولتعزفها جوقة أعماق الإنسان.

صحيح أن عتبة الواقع مرتفعة أمام ما يجب أن يكون في مدارسنا، ولكن هل ستسمح عتبة أكثر ارتفاعاً بمرور الخيال!

وائل كشك – مركز القطان